الباب الحادي عشر

تطور الحياة النفسية

مكونات الغريزة الجنسية :

ذكرنا فيما سبق معنى الغريزة الجنسية بوجه الاجمال ، وذكرنا أن هذه الغريزة تأخذ صورا مختلفة وتنتقل من صورة إلى أخرى عند الطفل ، حتى تصل إلى صورتها النهائية الناضجة عند البلوغ ، والآن نأتى إلى تفصيل هذا الاجمال .

فالغريزة الجنسية اسم اطلق على مجموعة من النزعات البدائية ، التى تصل إلى الاشباع بطريقة حسية ، أو بعبارة أخرى مجموعة من النزعات التي ترمى إلى اللذة الحسية بمختلف أنواعها .

وهذه النزعات لا تنشأ فى وقت واحد ، وانما تتوالى بكيفية خاصة ، كما أن الهدف الذى ترمى اليه يناله من التطور والتحويل مثل ما ينالها هى ، حتى تصل إلى الهدف النهائى للغريزة وهو التناسل .

ويطلق على هذه النزعات "مكونات الغريزة الجنسية" تمييزا لها عن الغريزة المتكاملة كما تظهر فيما بعد .

وهذه المكونات تتناول أجزاء مختلفة من الجسم ، بمعنى أن هناك مناطق من الجسم تتميز بحساسية كبيرة ، وتكون مصادر للذة (أو الألم) ، إذ تكون هذه المناطق محملة بقدر كبير من الطاقة الغريزية ، وعلى ذلك تكون حساسيتها عبارة عن العلامة الشعورية لتركز الغريزة الجنسية فيها ، والمنطقة من الجسد التى تتميز بالحساسية فى أى طور من أطوار الغريزة ، تفقد شيئا من هذه الحساسية عندما يحل الطور الثانى ، وتنتقل الحساسية الجنسية إلى المنطقة التالية . قلنا إنها تفقد شيئا ولم نقل إنها تفقد كل طاقتها ، لأن قدرا من هذه الطاقة يبقى فيها ، وهذا القدر قد يستخدم فيما بعد فى التمهيد لعملية التناسل نفسها ، وسنرى فيما يلى

ما يوضح ذلك . والقدر الذى تفقده من الطاقة لا ينتقل كله إلى المنطقة التالية ، وانما يستنفد جزء منه فى اعلاء هذا المكون من مكونات الغريزة فيتحول هذا الجزء كما عرفنا فى الاعلاء إلى غرض لا جنسى فلا يرمى إلى لذة حسيه ، بل إلى " لذة معنوية " ، ومعنى ذلك أن يكون هدفه استخدام قدر من الطاقة الغريزية فى غاية تكون مما يحمده المجتمع .

فالطاقة التى تتركز فى أى طور من أطوار الغريزة مآلها أن تتفرع إلى فروع ثلاث (الأول) يتجه عن طريق الاعلاء إلى هدف لا جنسى (الثانى) يتحول إلى الدور الثانى من أدوار الغريزة و يؤول فى النهاية إلى الغريزة بصورتها المكتملة فى دور البلوغ و (الثالث) يبقى على حاله ليعطى هذه المنطقة أهمية ثانوية دائمة بالنسبة لوظيفة النسل نفسها ، فيمهد لها تمهيدا وظيفيا كما سبق أن مهد لها تمهيدا تطوريا .

وعلى ذلك فهذه المكونات هى عوامل النضوج الجنسى ، كما أنها عوامل النضوج الاجتماعى والثقافى .

مناطق الغريزة الجنسية :

يمكن أن نقول بصفة عامة إن المظهر الجسدى للغريزة الجنسية هو عبارة عن حساسية خاصة ممتازة ترمى إلى التهيج وتلتمس اللذة عن طريقه بوسائل حسية أو ميكانيكية صرفة ، خصوصا فى مبدأ ظهورها ، و يكون مصدر الحساسية واللذة عند الطفل فى المبدأ فى حالة عامة غامضة ، غير محددة لا فى طبيعتها ولا فى مواضع الجسم التى تتأثر بها ، فيكون سطح الجلد بأكمله حساسا ، وهذا هو دور الحساسية العامة و يتلو هذه الحساسية العامة دور تتركز أثناءه الحساسية فى مناطق معينة بالتدريج ، ولكن تبقى للحساسية الجلدية العامة أهميتها ولها علاقتها المباشرة بالعملية الجنسية كما نعلم . ومناطق التركيز هى بوجه عام مخارج الجسم وأعضاء الحس .

وأول هذه المراكز الفم ، إذ تتركز فيه منطقة حساسة تدفع الطفل إلى التماس التلذذ بهذا العضو و يرجع ذلك إلى استعماله فى الرضاعة ، وإلى تركز الاشباع

والحرمان في محيطه ، وعلى ذلك يصبح هو "الجبهة" التي تناضل فيها الغريزة ، فتنال الاشباع أحيانا والحرمان أحيانا أخرى ، وبذلك يصبح أداة للتذوق ووسيلة للاعتداء — وهذه "المرحلة الفمية"[1] من أهم مراحل الغريزة لأن ما يتركز في الفم من الطاقة ينحدر جزء منه إلى المكون الثاني من الغريزة ، بينما يبقى جزء من الحساسية بقاءً دائمـا ، يخدم الغريزة كما قلنا ويتمثل ذلك في أهمية التقبيل من الناحية الجنسية الصرفة — أما سائر الطاقة الغريزية فينصرف إلى استخدام الفم في أغراض اجتماعية وثقافية فيصبح أداة التفاهم والتحاب والسمو الى غير ذلك من النواحي التي تعتبر من قبيل الإعلاء — وهو ما يزال يستخدم سلاحا للاعتداء والدفاع كما استخدم من قبل ، غير أن الاعتداء يتحول من اعتداء مادي صرف — عض الثدي وماليه — الى اعتداء معنوى بالقول والسباب والهجاء .

وكما أن الفم من أوائل المناطق التي تتركز فيها حساسية خاصة فكذلك الشرج[2] لـما يجده الطفل من الراحة عند التبرز ، ولـما يرتبط بهذه العملية من الألم ، سواء أكان ألمـا داخليا منشؤه عدم انتظام وظائف الامعـاء ، أم خارجيا منشؤه ما يطالَب به الطفل من انتظام العادة ، وما ينـاله من عقوبة أو تأنيب نتيجة لاستخدام هذه الوظيفة استخداما طبيعيا بالنسبة اليه ، ولكنه مستنكر من البيئة .

وعلى ذلك فهذه الوظيفـة ينالها شيء كثير من المقاومة والقمع والكبت ، وهي تستخدم أداة للاحتجاج والانتقام ، وتصبح أساس كثير من أنواع الإعلاء ، وتتحول الطاقة بعد ذلك الى الجهاز البولي[3] باعتباره مخرجا من مخارج الجسم .

ومن المناطق التي تتركز فيها الغريزة مركز الاحساس البصري أو العين فالتلذذ عن طريق البصر برؤية الألوان والأشكال مما يظهر في الأطفال بشكل واضح ، وينتهي الأمر بتركز الحساسية في النهاية في أعضاء التناسل[4] بعد أن تكون قد تركت أثرا واضحا في كل منطقة أخرى مرت بها فتصبح الحساسية الجنسية الرئيسية مركزة فيها ، بينما تبقى المناطق الأخرى محملة بشيء من الحساسية يختلف باختلاف ظروف التطور الذي مر بها .

---

(١) Oral Phase (٢) Anal Phase

(٣) Uretaral Phase (٤) Genital Phase

التثبيت[1] :

ولهذا الاختلاف قصة يحسن بنا أن نوردها هنا . فالغريزة عند ما تتركز فى منطقة من المناطق انما تمهد للمنطقة التالية ، ولكن يحدث أحيانا أن يكون هذا الانتقال ناقصا مبتورا وأن يبقى قدر كبير من الطاقة متعلقا بالطور البائد لا يتركه ، ويطلق على مثل هذه الحالة "التثبيت" وينتج عنه أن يبقى من الحالة البدائية ، نصيب أكبر من الطبيعى ، ويبقى السلوك البدائى عالقا بالشخصية ، ومن ذلك ما نراه فى حالات الشذوذ الجنسى على اختلافها .

تطور أهداف الغريزة :

ويصحب هذا التطور فى مناطق الحساسية الجنسية ، تطور فى أهداف الغريزة فالغريزة فى مبدأ الأمر لا ترمى الى هدف ما غير مجرد اللذة الموضعية ، فلا يكون هناك اتجاه نحو شخص أو شىء معين .

أى أن اللذة تكون غير مرتبطة بالذات فى مجموعها بل بالعضو فى ذاته ، فلذة الفم عند الطفل الرضيع فى مبدأ حياته متعلقة بالفم ذاته ، وليست لذة للشخص فى مجموعه كما هو الحال عند الكبار .

وتتطور هذه اللذة الموضعية الى حالة تتعلق بالشخص أو بالذات ، فيصبح الشخص نفسه موضعا للحب وينشأ مايسمى عشق الذات ، أو كما يسميها فرويد "النرجسية" [2] نسبة الى نرجس "نارسيس" فى الأسطورة اليونانية وهو شاب جميل الصورة كان يفكر فى الزواج وأرادت أخته أن تصرفه عن الزواج ، فذكرت له أنها ستُريه فتاة تفوق فتاته فى الجمال ، وذهبت به الى بئر وطلبت منه أن ينظر فيها فرأى صورته فى صفحة الماء . وما كاد يرى هذه الصورة حتى هام بحبها ، وانصرف عن فتاته ، وأصبح لا يسلو التردد على بئره ليرى فتاته الموهومة ، التى هى فى الواقع صورة وجهه .

---

(1) Fixation

(2) Narcissism

وتمر مرحلة النرجسية وتتلوها مرحلة يتعلق فيها الحب بأشخاص خارجين يكونون أولا من جنسه ثم من الجنس المقابل . فتعلق البنت بالبنت والولد بالولد يسبقان تعلق البنت بالولد والولد بالبنت ، ويشاهد ذلك فى الطفولة المبكرة كما يشاهد فى بدء المراهقة .

ونلخص هذه الأطوار فيما يلى :

أولا — الحب غير الموجه[1] .

ثانيا — الحب الموجه .

(ا) نحو الذات[2] .

(ب) نحو أشخاص آخرين[3] .

(١) من نفس الجنس[4] .

(٢) من الجنس الآخر[5] .

وكل دور من هذه الأدوار يعتبر تمهيدا للدور الذى يليه ، كما حدث بالنسبة لمكونات الغريزة ، وكل دور يحدث فيه الاعلاء والتثبيت بنفس الكيفية التى سبق أن تكلمنا عنها .

ويقتضى تطور الحياة العقلية ، أن تُنسق هذه المكونات ، وتنظم تحت قيادة غريزة التناسل الحقيقية " فى البلوغ " فتمهد لها كما قلنا من الوجهة التطورية ، أى أنها تهيىء الحدث لحياته الجنسية الناضجة ، ولكنها تبقى حتى بعد البلوغ لتخدم عملية التناسل الحقة . فاذا علمنا هذه العملية الأخيرة فإننا نجد أن الدور الذى تقوم به العين والفم والاحساس الجلدى العام ، دور له علاقة مباشرة بالتمهيد الجنسى ، ولزيادة الايضاح نذكر بعض الأمثلة .

فالرؤية — موجبة[6] أو سالبة[7] — لها أهميتها فى التمهيد الجنسى ، بل إنها أمر أساسى ، لأن الأليف فى الأحوال العادية يعرف أليفه بالنظر ، ويغلب

---

(١) Auto-Erotic (٢) Narcissistic (٣) Allo-Erotic (٤) Homosexual

(٥) Heterosexual (٦) Skoptophillie (٧) Exhibitionistic

أن يكون الاختيار مبنيا عليه ، سواء فى الانسان أو الحيوان . كما أن الرغبة فى اجتذاب الجنس الآخر تستغل هذه النزعة ، فيبدو كل جنس فى الزينة التى تجتذب الجنس الآخر ، وتسهل له غزوه ، وتمهد السبيل إلى تكوين النسل .

أما الفم فلا سبيل إلى المبالغة فى علاقته المباشرة بالغريزة ، وقد كانت القُبلة دائما ذات معنى جنسى واضح ، وهى وثيقة الصلة بالاتصال الجنسى . ولا شك فى أن القُبلة من الوظائف التى تستوقف النظر لكثرة ماتؤديه من المعانى . فهى بالنسبة للأطفال متعة فى ذاتها ، ولذة كاملة مستقلة ، أما فى البالغين فهى تمهيد وخدمة لما هو معلوم من الاتصال الجنسى ، ولكنها تبقى فى الكبار لتخدم أغراضا أخرى كالحنان والصداقة . . . . الخ مما يبين أنها تستبقى قدرتها على الاستقلال وعلى أن تكون غرضا لذاتها .

وهذه النزعة لأن يستبقى المرء مكونات الطفولة بعد انتهاء وظيفتها التمهيدية الحيوية هى ما سميناه (بالتثبيت) والتثبيت شائع فى جميع مكونات الغريزة ، ومن الطبيعى أن يحدث قدر معين من التثبيت فى جميع المكونات — ولكن إذا زاد التثبيت عن هذا الحد خرج الشخص عن كونه طبيعيا وأصبح التثبيت عرضا من أعراض المرض النفسى .

والمرور من إحدى المراحل إلى المرحلة التى تليها يقتضى أن يحدث الاعلاء بالنسبة للمرحلة المنقضية ، فتتحول طاقتها إلى مجرى يجعل منها أداة للتقدم الخلقى والاجتماعى للفرد ، أى أنها تنحرف عن الهدف الجنسى إلى أهداف غير جنسية بينما تخلى الطريق للمرحلة التالية ويتكرر ذلك من مرحلة إلى أخرى .

وهذا هو المقصود من إعلاء الغريزة الجنسية ، فالإعلاء كما قلنا من قبل يندر أن يحدث بالنسبة للغريزة فى صورتها الأصلية الناضجة ، وإنما يحدث أغلبه بالنسبة لمكونات الغريزة وهى فى طريقها لإعطاء الغريزة صورتها النهائية .

وما يحدث بالنسبة لهذه المكونات من التجمع نحو المركز وهو "التناسلى" ، سواء من وجهة التطور أو من وجهة التمهيد الوقتى هو ما يسمى بتكامل الغريزة أى بتساند مكوناتها لكى تكون كُلًّا واحدا ، أو صورة كاملة ، تتجه خطوطها نحو مركز واحد هو استمرار الجنس .

ومنه نشتق معنى آخر وهو أن الطفل من يوم ولادته إنما يمهد لهذه الخطوة النهائية لكي يؤدى وظيفته الحيوية لاستمرار نوعه ، فيمر فى " خبرات " جنسية متعددة الأشكال والنواحى ، متدرجة من الاحساس العام الغامض ، الذى لايكاد يرمى إلى غرض ما ، إلى الشبق الجنسى المركز الذى يرمى إلى غرض محدد .

والغريزة فى الحالتين تدفعه إلى التماس الاشباع دفعا شديدا .

ولكن الطاقة الغريزية أكثر مما يحتاجه لأداء هذه الوظيفة ، وعلى ذلك فيتبقى عنده رصيد كبير يستخدمه فى اعلاء نزعاته ، وتوجيهها نحو الرقى له وللمجتمع الذى يعيش فيه .

فتتحول النزعة نحو العبث بجسمه وأعضائه إلى النزعة نحو التشكيل والبناء واستخدام اليدين والأدوات فى الوصول إلى أغراض يحددها فكره الخاص أو الفكر الإنسانى العام ، ومن هذا الطريق ينشأ الميل عند الفنان ، والبنّاء ، والمهندس ، والعامل ، والزارع ، إلى آخر مايجد الإنسان من الفرص للتعبير عن هذه النزعة البدائية فى صورة راقية من وجهة النظر الخلقية والاجتماعية .

وكذلك تتحول النزعة نحو التلويث إلى نزعة نحو الإنتاج والخلق والإبداع ، والنزعة نحو " الإمساك " إلى الاقتصاد والجمع والادخار ، وينشأ الخُلق مصطبغا بصبغة الكرم والعطاء ، أو بصبغة البخل والإمساك ، " لاحظ الاستعمال اللفظى فى اللغة " .

كما أن النزعات المضادة " الكابتة " تعلى أيضا ، فنحصل على صفات مثل حب النظافة ، والنظام ، والدقة ، والمواظبة ، والطهر ، والإرادة ، والعزم ، إلى غير ذلك .

ولنعد إلى تطور الهدف الذى ترمى اليه الغرائز ، فهى فى أول الأمر كما قلنا غير موجهة ، فكل غريزة تبحث عن إشباع ذاتى ، فلذّات الطفل الصغير غالبها من هذا النوع ولكن تبقى فى حياتنا آثار واضحة لنزعة الاشباع الذاتى .

فالتدخين ، والغرام بطعم الحلوى ، وما اليها من المهيجات الموضعية للفم ، كالمخللات والأفاوية " كلها ترمى جزئيا إلى إشباع موضعى ، ومن قبيل

ذلك ايضا الاستمناء ، وحك الجلد ، فهى كلها لذات تظهر عليها صفة الموضعية .

وفى الدور الثانى وهو دور عشق الذات أو " النرجسية " تتجه غرائز الطفل إلى موضوع محدد ، ولكن الموضوع فى هذه الحالة هو الطفل ذاته ، فهو معنى بنفسه ، مشغول بجسمه ومظهره ، وعقله ، فليس بينه وبين غيره من الناس ذلك الاتصال النفسى السليم ، فهو لا يهتم بغيره اهتماما كافيا لأن طاقته العقلية موجهة إلى داخله ، فهو يعرض نفسه ، ويتلذذ من هذا العرض ، ويُعجب بما يقول وما يفعل ، وتبدو فيه " الأنانية " ، والعزوف عن " الروح الاجتماعية " بشكل واضح . ولاشك أن خروج الطفل من هذا الدور لا يعنى انعدام اهتمامه بنفسه ، بل بالعكس ، يبقى قدر من هـذا الاتجاه عند الكبار ومن الطبيعى أن يتبقى قدر معقول منه — ولكن من غير الطبيعى أن يبقى لاصقا بالبالغ قدر كبير مما كان عنـده وهو طفل . وأعراض ذلك أن يكون الشخص شديد الاهتمام بنفسه ، قليل الاهتمام بالناس وبالعالم الخارجى ، مشغولا بجسمه ، وفى الحالات الكبيرة الشذوذ يكون شديد الانشغال بما يدور فى نفسه ، حتى إنه لا يسهل عليـه تتبع مايدور حوله ، ولاتتكون بينه وبين محيطه تلك الصلة العقلية السليمة ، فاذا تطرف الشخص فى ذلك تطرفا كبيرا ، أدى ذلك به إلى نوع أو آخر من المرض العقلى أو الجنون ، وكل أنواع الجنون تتضمن قدرا من الانشغال بالنفس ، والانسحاب من العالم الخارجى ، ويكفى لكى نقـدر ذلك ، أن نزور أحد مستشفيات الأمراض العقلية ، فان أول ما يجابهنا فيها أن نرى المرضى الذين يعيشون معًا لا يكوّنون جماعة بالمعنى المـألوف لنا ، بل هم أفراد متنافرون ، كل منهم يتحرك ويعيش فى عالم عقلى مستقل ، بالرغم من أنه يجمعهم فراغ واحد . فلا صداقات ولا اجتماعات ، ولا اتصالات بين أثنين أو أكثر بل انفصال يكاد يكون تاما . كل منهم يتحرك فى محيطـه الخاص ، ويخلق لنفسه جوّا من الخيال منفصلا عن الجو الواقعى ، ويحقق آماله عن طريق الوهم فى هذا الجو ، بدل أن يكلف نفسه مشقة تحقيقها فى عالم الحقيقة .

ولا شك فى أننا جميعا نحـدر انحدارا وقتيا إلى هـذا الانسحاب والانطواء على النفس ، وخصوصا فى حالة أحلام اليقظة والاستسلام إلى الخيال .

وليس معنى هذا أن الخيال بالضرورة من علامات الاضطراب العقلى ، فإن قدرا معقولا منه لابأس به ، بل هو مفيد من بعض الوجوه ، فهو يمثل صمام الأمن فى حياتنا العقليـة ، ننفّس بواسطته عن الرغبات والنزعات المكبوته ، التى لا تجد طريقها إلى التحقق فى عالم الواقع ، ثم إنه يعتبر فى بعض الأحيان تمهيدا للوصول إلى الأغراض الحيوية ، إذ أن الخيال يعتبر نوعا من التفكير والتجربة فى سبيل الوصول إلى الغرض ، وكثيرا ماتدفعنا اللذة المشتقة من الخيال إلى بذل الجهد لالتماسها عن طريق الواقع ، وإنما يصبح الخيال ضارا وغير طبيعى ، إذا زاد حدوثه عن حد معين ، وإذا كان انغماس الشخص فيه بحيث يفقده الاتصال بعالم الواقع ، والحكم فى ذلك السهولة التى يستطيع بها الشخص أن ينتقل إلى عالم الواقع فما دام الأمر لم يخرج زمامه من الشعور فلا بأس به ، أما إذا خرج الزمام ، فانه يبدأ فى أن يكون عرضا مرضيا يحتاج إلى العناية بأمره . ولاشك فى أن من الطبيعى أن يكون عند الأطفال قدر معين من عشق الذات كما أن المجتمع يحتمل من النساء مالايحتمله من الرجال فى هذا الصدد .

ولمرحلة النرجسية أدوار متعددة يتعلق عشق الفرد فيها بنواح مختلفة من ذاته ، ففى الدور الأول من أدوار النرجسية ، يكون عشق الشخص لنفسه كما هى ويبقى أثر ذلك لدرجة معينة طول حياته ، والدور الذى يلى هذا هو عشق الشخص لنفسه كما يُحبُّ لها أن تكون ، وذلك بدء تكوين المثل العليا فى حياة الشخص ، وبدء تكون " الأنا العليا " التى ذكرنا مالهـا من الأثر الخلق فى حياة الفرد . وهـذا فى الواقع نوع من الإعلاء لنزعه عشق الذات وهو من أهم منابع الخُلق فى حياة الفرد والجماعة .

وعندما تنقضى مرحلة النرجسيـة تبدأ المرحلة التاليـة فى حياة الطفل وهى مرحلة العشق الخارجى ، فيتجه الحب فيه إلى موضوع خارجى سواء أكان شيئا أم شخصا ، ويختار الإنسان ما يحبه فى هذه الحالة عن طريق الاشتقاق من نزعاته الأولى ، وعلى ذلك فهناك طائفتان من الأشياء التى تكون موضع الحب .

الأولى مشتقة اشتقاقا مباشرا من عشق الذات (النرجسية) .

والثانية مشتقة منها اشتقاقا غير مباشر لأنها ترمى إلى حب الأشخاص الذين يجيبون الرغبات (الأب والأم) .

فنى الأولى يحب الشخص أشياء تكون شبيهة :

(١) بذاته كما هى .

(٢) « « كانت .

(٣) بما هو جزء من ذاته .

(٤) بذاته كما يُحبُّ أن تكون .

وأما فى الثانية فتكون الأشياء شبيهة :

(٥) بالأم التى تُغذّى .

(٦) بالأب الذى يحمى .

فنى الحالات الأربع الأولى يكون تحوّل الطاقة الغريزية عن طريق النزعة النرجسية أما فى الحالتين الأخيرين فهو عن طريق النزعات البدائية لإشباع الحاجات الحيوية عن طريق الغير " الأب والأم " .

فنى الأولى يختار الانسان لمحبته شخصا يشبهه وذلك من أبسط أنواع الابدال.

وفى المشاهدات العادية نجد كثيرا ممن يحبون مشابهيهم . ولكن المشابهة قد تكون مادية أو " معنوية " كالمشابهة فى الملامح أو اللون أو فى القامة ، أو فى الذكاء أو الخُلق ، أو المركز الاجتماعى[1] ، ومن نواحى الشذوذ فى هذا النوع من الحب ما يعرف بالاتصال الجنسى الشاذ " الوحيد الجنس " .

وفى الحالة الثانية يكون الاختيار بين أشخاص يشبهون الذات كما كانت فى وقت ما ، فيختار الرجلُ أو المرأةُ اللذان جاوزا حدّ الشباب ، من كان يشبههما فى فترة الفتوة والجمال . ومن هذا القبيل الزيجات التى يكون فيها التفاوت فى السن كبيرا . وينتج ذلك عن نوع من التثبيت ، يكون قد حدث بالنسبة لفترة معينة من سن الشباب ، وينصبُّ الاختيار على أشخاص يمثلون هذه الفترة بكيفية ما .

وفى الحالة الثالثة — تتجه المحبة إلى الأبناء ، ومن اليهم لأن الابن يمثل قطعة من النفس — خصوصا بالنسبة للأم — ولذلك كثيرا ما نجد الأم الشديدة

---

(١) ومن قبيل ذلك أنواع "التعصب" المختلفة من وطنى وعنصرى ودينى وقبلى . . . . الخ .

المحبة لنفسها ، شديدة المحبة لأبنائها ، بينما قد تكون فاشلة فى حب زوجها ، لأنه لا يمثل نفسها ولا جزءا منها .

وكثيرا ما نجد أن الانسان يعتبر أن كل شىء بذل فيه جهدا خاصا ، أو تعب فى تكوينه والعناية به ، كأنه جزء من نفسه فيضفى عليه المحبة ، كما فى حالة الأبناء تماما .. ومثال ذلك حب جامع التحف لتحفه ، والمؤلف لكتبه ، والمخترع لاختراعه ، والمعلم لتلاميذه ، إلى غير ذلك مما نشاهده كثيرا فى حياتنا اليومية .

وفى الحالة الرابعة ، يحب الشخص من يشبه نفسه كما يحب أن تكون ، فيختار مثله العليا فى الجمال ، أو الصحة ، أو الذكاء ، أو الخلق ، ويخصها بمحبته ، فكأنه يلتمس فى محبوبه ما ينقصه من الصفات الجثمانية والخلقية ، وقد تكون هذه نقيض صفاته ، فيختار من يعوض النقص الموجود فيه ، والحب فى هذه الحالة يصل بنا إلى عكس النتيجة التى يوصلنا اليها فى الحالة الأولى .

أما الحالتان الخامسة والسادسة ، فالحب فيهما مشتق من المحيط العائلى ففى الخامسة يبحث الشخص عمن يعيد اليه شعوره بالعناية ، والحدب ، والحنان ، والرعاية ، وأمثال هؤلاء لا يسعدون إلا مع زوجات يؤدين الوظائف المادية والعاطفية التى كانت تؤديها الأم . وكثيرا ما يفشل زواجهم عند ما يقصر ما تقوم به الزوجة ، دون الحلول محل ما كانت تقوم به الأم . أما فى السادسة فيبحث الشخص "المرأة فى الغالب" عن الرجل الذى يقوم لها بالحماية ويكفل الأمن والطمأنينة التى كان الوالد رمزا لها .

عقدة أو ديب :

ويبدأ تحديد هذه الميول المختلفة من عهد الطفولة ، إذ يكون للمحيط العائلى أثر عميق فى نفس الطفل ، وله بناءً على ذلك أثر كبير فى تكييف سلوكه فيما يلى من حياته .

وهذه الميول ليست بالبساطة التى قد نتوهمها ، بل هى معقدة غاية التعقيد ، ومتشابكة بعضها مع البعض غاية التشابك . وفى محيط العائلة تتكون

عواطف الطفل نحو أبويه ونحو أخوته ، فاذا خرج عن النطاق العائلى الضيق إلى المجتمع الواسع ، فان العواطف التى يكونها فى هذا النطاق الواسع تكون صورة طرديّة أو عكسيّة أو معدّلة ، لعواطفه العائلية الأولى ، فهى مشتقة منها على كل حال ، فعلاقاته بزملائه ، أو برؤسائه ، أو برؤوسيه ، أو بالأصدقاء ، أو بالغرباء ، أو بالمواطنين ، أو بزوجته وأبنائه فيما بعد ، كل هذه إنما تنبع فى الأصل ، من علاقاته العائلية الأولى ، ولكن بعد أن يتناولها كثير من التغيير والتبديل حسب الظروف .

فقد يكون الطفل مطيعا غاية الطاعة ومحبا غاية الحب لوالديه ، فاذا كبر كان متمردا على رؤسائه كارها لهم ، وقد يحدث العكس فيكون سلوكه نحوهم صورة مطابقة لسلوكه نحو أبويه . وذلك راجع إلى انه ليس هناك شئ اسمه العاطفة النقية الخالصة فى حياة الانسان ، فالعقل يحتضن العاطفة وضدّها فى وقت واحد ، فالعاطفة نحو كل من الأم والأب عاطفة ثنائية معقّدة .

فالأم هى المركز الخارجى الأول لعواطف الطفل كما سبق أن ذكرنا لأنها الوسيط لإجابة رغباته الملحّة ، وعلى ذلك فحبه يتركز كله نحوها فى بادئ الأمر . والحب يدعو إلى الاستئثار وعلى ذلك فالطفل يريد أن يستأثر بأمه استئثارا تاما لا فى وقت حاجته المادية اليها — الغذاء وما اليه — بل فى كل وقت . وهو يدعوها اليه نهارا وليلا ، ويتئمس أشد الإيتئاس اذ لا يحصل على بغيته — وعلى ذلك فهو يغار عليها ، يغار عليها من إخوته ، وذلك مشاهد ملموس ، ويغار عليها من مشاكلها العديدة التى تدعوها بعيدا عنه ، ولكنه يغار عليها أولا وفوق كل شئ من الشخص الذى يجد أنها تعطيه من نفسها أكثر مما تعطى أى شخص آخر ، وهو الأب ، فالأب يستأثر بالأم متى شاء ، بل إنما تقضى معه جانبا كبيرا من وقتها ، وخصوصا ليلا ، اذ تنام واياه فى مكان واحد ، وتترك طفلها وحيدا ، ويتنبه عقل الطفل جيدا إلى هذا المنافس القوى فيتكون عنده الحقد عليه والغيرة منه .

فالشعور البدائى اذن هو شعور بالمحبة الشديدة للأم[1] ، والرغبة فى الاستئثار بها ، وشعور بالكراهية الشديدة للأب والغيرة من تفوقه وتملكه للأم .

---

(١) المحبة هنا شعورية تقابلها كراهية لاشعورية (أنظر ص ٥٧ وما بعدها)

ولكن هذا لا يدوم طويلا لأن الطفل كما قلنا ، يمتص من الأم عواطفها ويندمج فى شخصيتها ، فهو بالتدريج يُحِبُّ ما تُحِبُّ الأم ومن تُحِبُّ ، حتى ولو كان ذلك ضد رغباته الغريزية التى يتناولها الكبت فى هـذه الحالة . ويحدث هـذا بالضبط فى حالة الأب فهو موضع محبة الأم والتفاتها ، وعلى ذلك فهو شخص يجب أن يُحَبُّ ، ويصبح فعلا محبوبا من الطفل عن هذا الطريق ، وأما الكراهيـة الاصلية فانها تكبت ، وتصبح لا شعورية ، وعلى ذلك يصير الأب محبوبا فى الشعور مكروها من اللاشعور . بل إن صفات الأب ومظهره يصبحان محل اعجاب الطفل ، وتصبح له رغبة شديدة فى التحلى بها حتى يفوز من التفات الأم بما يفوز به الأب .

وهذه الحالة من حالات "الثنائية" فى العواطف أو "التناقض" فيها . ومن الغريب أن الأمر لا يقف عند هذا الحد إذ أن هذا الموقف يؤدى إلى أن تصبح الأم منافسة فى حب الأب فتتجه نحوها كراهية لا شعورية(١) .

وقد تتعقد الصورة أكثر من ذلك خصوصا بالنسبة لجنس الطفل ، فالطفل الذكر يميل فى الغالب إلى أن يكون حبه لأمه وكراهيته لأبيه ، وبالعكس بالنسبة للطفل الأنثى وقد تحدث مضاعفات أخرى . وهكذا .

وهكذا يكتسب الطفل من محيطه العائلى مجموعة من العواطف المعقدة المتناقضة ، تتركز حول الأب والأم — وقد أطلق على هـذه المجموعة اسم "عقدة أوديب"(٢) نسبة إلى أوديب الملك الذى قيل إنه قتل أباه وتزوج أمه .

وفى الغالب تكون المحبة هى الصورة الواضحة للعلاقة بين الطفل وأبويه بينما تكون الكراهية مكبوتة — وهذه الكراهية المكبوتة تجد الطريق إلى التعبير عن نفسها عن طريق الابدال ، فكثيرا ما يختص الطفل بكراهيته الشديدة — فيما بعد — أناسا يشبهون الأب من حيث المنظر أو السلطة أو الوظيفة ، وكثير من الثائرين والمتمردين انما يعبرون بثورتهم وتمردهم عن الكراهية المكبوتة للأب الذى يظهرون له ويشعرون نحوه — بحق — بكل محبة واحترام .

وكذلك بالنسبة للأم ، فان شعور الكراهية المكبوت قد ينصب فيما بعد على الزوجة أو الحبيبة أو على جنس النساء بوجه عام .

(١) Flugel : Psychoanalytic Study of the Family. (٢) Oedipus Complex

ويأتى بعد ذلك دور الإخوة فكل منهم منافس ، وكل منهم ينال نصيبه من المحبة والكراهية ، فى الشعور أو فى اللاشعور ، وكل هذه العواطف قابلة للإبدال والاعلاء فى مستقبل حياة الطفل .

ويتوقف قدر كبير جدا من الخلق الشخصى والسلوك الاجتماعى على أنواع الابدال والاعلاء التى تحدث بالنسبة لألوان المحبة والكراهية التى تنشأ فى محيط العائلة .

فاذا حدث " تثبيت أبوى " قوى عند الطفل ، فإنه يجد من الصعب عليه جدا فيما بعد ، أن يتزوج ، أو يترك منزل العائلة ، أو أن يستقل بنفسه ويخرج إلى الحياة ، لأنه لا يستطيع الفكاك من الموقف العائلى الذى يلاحقه ، حتى بعد أن تراك طفولته بزمن طويل .

وكثيرا ما يجرى الفرد وراء تكرار مواقف طفولته فيما يلى من حياته ، فهو يحب أولئك الذين لغيره حق عليهم — مكررا بذلك موقف المنافسة للأب فى محبة الأم ، فهو يحب المرأة المخطوبة أو المتزوجة ولا يرضى بها بديلا ، ولا تجتذبه امرأة خالصة مهما كان فيها من المغريات الذاتية ، لأن ما يجتذبه هو الموقف الذى مر به وهو طفل — وقد كان فى أمثال هؤلاء معين لا ينضب لكتاب القصص والروايات .

أما التطور الأمثل فانه يحدث بكيفية تدريجية ، ويتجه نحو الاستقلال التدريجى عن الأب والأم . فيحدث عند الطفل (فطام) نفسى تدريجى ، كالفطام من الرضاعة . أى أنه يستطيع أن يستقل بعواطفه ، ويجد لها متكآت أخرى ، فيما يجده من لعب ودرس وسعى فى الحياة وعلى ذلك يصبح حرا فى أن يكون عواطف جديدة ، ويحب ويتزوج طبقا لمبادئ لا تكون بالضرورة تكرارا لمواقف الطفولة الاولى . وذلك لا يمنع أن يكون متأثرا بها ، ولكن الأثر يدخل عليه التعديل عن طريق الاعلاء ، فلا يبقى له طابع الصراع والكفاح والتقيد العنيف الذى يبدو فى حالات التثبيت .

وبهذه الكيفية يمكن أن ينتقل ولاء الشخص بسهولة من المحيط العائلى الضيق إلى محيط الحياة الواسع ، فالولاء للأصدقاء وللعمل وللوطن . . . الخ يصبح ممكنا إذا أمكن الفكاك من القيود العائلية الأولى .